

عطاء الكلمة الطيبة



يقول تعالى في كتابه العزيز: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ الْإِنُّ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُوْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِلَا ذَنْ رِيٍّهَا وَيَضْرِبُ الْإِنُّ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ) (إبراهيم/ 24-26). إِنَّ الْ سِحَانَهُ وَتَعَالَى يَرِيدُ أَنْ يَرْكَزَ فِي وَجْدَانِ الْإِنْسَانِ أَنَّ كُلَّ حَيَاتِهِ فِي دَوْرِهِ الْإِجْبَابِي تَخْتَصِرُهَا (الكلمة الطيبة) كَمَا أَنَّ كُلَّ حَيَاتِهِ فِي دَوْرِهِ السَّلْبِي تَخْتَصِرُهَا (الكلمة الخبيثة). فالإنسان الذي يعيش العقل كما يريده الْ، ويعيش القلب كما يحبُّه الْ، ويعيش الحركة كما يرضاها الْ، هو (الكلمة) المتجسِّدة في إنسانه، ونحن نؤمن أَنَّ الْ سِحَانَهُ وَتَعَالَى أُعْطَى عَيْسَى (عليه السلام) صفة أنَّهُ كَلِمَتُهُ، وربما يفسِّرُهَا البعض لأنَّهُ انطلق من إرادة الْ التي يعبِّرُ عَنْهَا (إِرْسَامًا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (يس/ 82). الكلمة الطيبة ليست محدودة في جانب معيَّن، فهي كلمة طيبة لأنَّهَا تَغْنِي الْحَيَاةَ وَتُعْطِيهَا حَرَكَتَهَا وَحَيَوِيَّتَهَا، وهي كلمة طيبة لِلْإِنْسَانِ لِأَنَّهَا تَجْعَلُ عَقْلَهُ طَيِّبًا يَنْفَتِحُ بِكُلِّ الطَّيِّبِ الَّذِي يَتَحَرَّكُ بِهِ الْفِكْرُ فَتَشْعُرُ بِطَيِّبِ الْفِكْرِ فِي عَقْلِهِ، وَتَجْعَلُ الْقَلْبَ طَيِّبًا فَإِذَا بِالْقَلْبِ كَلَامُهُ مَحَبَّةٌ وَخَيْرٌ وَانْفِتَاحٌ، وَتَجْعَلُ الْحَرَكَةَ طَيِّبَةً فَإِذَا بِهَا تَنْطَلِقُ لِتُعْطِيَ فَاكْهَةً فِكْرِيَّةً هُنَا، وَثَمَرَةً رُوحِيَّةً هُنَا، وَمَشْرُوعًا لِلْحَيَاةِ هُنَا، فَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ تَمَثَّلُ كُلَّ إِيْجَابِيَّاتِ الْحَيَاةِ وَكُلَّ إِنْسَانِيَّةِ الْإِنْسَانِ وَلِهَذَا شَبَّهَهَا الْ تَعَالَى فِي عَطَائِهَا وَحَيَوِيَّتِهَا وَفِي امْتِدَادِهَا وَفِي عَمْقِهَا بِالشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ الْإِنُّ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً) (إبراهيم/ 24)، أَتَرِيدُ أَنْ تَعْرِفَ مَا الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ فِي الْوَاقِعِ؟ انظر إِلَى الشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ، فَإِذَا بِهَا تَمْتَدُّ جُذُورُهَا فِي أَعْمَاقِ الْأَرْضِ حَتَّى تَكَادُ تَنْفَتِحُ عَلَى الْأَرْضِ بِكُلِّ عُرُوقِهَا، وَإِذَا بِهَا أَيْضًا تَمْتَدُّ فِي السَّمَاءِ حَتَّى تَبْلُغَ إِلَى أَعْدَالٍ مَا يُمْكِنُ أَنْ تَبْلُغَهُ أَغْصَانُ الشَّجَرِ.

ثُمَّ إِنَّ عَطَاءَ (الكلمة الطيبة) لَيْسَ لَهُ مَوْسِمٌ مُعَيَّنٌ، فَفِي الرَّبِيعِ تُعْطِيكَ الثَّمَرُ وَفِي الصَّيْفِ تُعْطِيكَ وَفِي الشِّتَاءِ وَفِي الْخَرِيفِ، هَذِهِ هِيَ الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ فِي صَوْرَتِهَا الْمَادِّيَّةِ الْحَسِّيَّةِ، فَهِيَ عِنْدَمَا تَكُونُ صَدَقًا، حَقًّا، وَعِنْدَمَا تَكُونُ عَدْلًا، عِلْمًا، وَعِنْدَمَا تَكُونُ خَيْرًا، فَهِيَ تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ، فَالْخَيْرُ لَا فَضْلَ لَهُ، فَكُلُّ الْفُضُولِ فَضُولُهُ، وَالْحَقُّ لَا مَوْسِمَ لَهُ، فَكُلُّ الْمَوَاسِمِ مَوَاسِمُهُ، وَهَكَذَا الْعَدْلُ وَكُلُّ الْقِيَمِ

الروحية (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ الْإِنْسَانُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً) في عمقها، وفي امتدادها، وفي عطائها، (كَشَحَرَةً طَيِّبَةً أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُولِّيهِ أَكْثُلَهَا كُلٌّ حَيِّنٌ بِالْذُّنِّ رَيبٌ هَذَا). والآن تعالى لا يأذن إلا بالمحبة (وَيَضْرِبُ الْإِنْسَانُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ) (إبراهيم/ 25)، فالآن يضرب المثل بالشيء الحسني لننتقل منه إلى الشيء المعنوي (لَعَلَّاهُمْ يَذَّكَّرُونَ)، فإيا أيها الإنسان فكِّر.. حرِّك فكرك وعقلك، وحاول أن تأخذ شيئاً من شيء، وحاول أن تستنتج، ولا تجمّد على ما عندك بل طوِّره بالانتقال من (الحسني) إلى (المعنوي) ومن (المعنوي) إلى (معنوي آخر).

أيها الناس، انظروا إلى الكلمات الطيبة كيف امتدّت وقد مات الرُّسُل ومات الأولياء، ويبقى القرآن أمدّ الدهر يمتد فكراً وقيمة وحركة وحيوية، وانظروا إلى الكلمات الخبيثة، كيف ذهبت مع الرياح، فيما يبقى الآن وتبقى كلماته، ويبقى الإنسان يحلّق في الكلمات الطيبة التي ترتفع إلى الآن (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ) (فاطر/ 10)، فهل لنا أن نأخذ بالكلم الطيب في حياتنا الفردية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية حتى ينطلق الكلم الطيب ليغني حياتنا؟ فكِّروا فيما يخلد، ولا تفكِّروا فيما يموت... (الْمَالُ وَالْأَنْدُونُ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)، تلهون بها لحظة أو لحظتين (وَالْأَبْقَايَاتُ الصَّالِحَاتُ)، في كلماتكم، (وَالْأَبْقَايَاتُ الصَّالِحَاتُ) في أعمالكم، (وَالْأَبْقَايَاتُ الصَّالِحَاتُ) في مشاريعكم، (وَالْأَبْقَايَاتُ الصَّالِحَاتُ) في كلّ الحب الذي تعطونه، وفي كلّ الحق الذي تثبِّتونه، وفي كلّ الباطل الذي تهدّمونه (وَالْأَبْقَايَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً) (الكهف/ 46).